

وظائف " الفقرا " في سلطنتي الفونج والفور



د. الطبيب أبشر الطبيب*

مدخل :

تقتضي هذه الدراسة تناول الموضوعي لمكوناتها من عدة زوايا ، تاريخية وسياسية وتربوية واجتماعية وإعلامية ، بهدف إبراز الأدوار التي أداها " الفقرا " ككيان ديني مؤسس وكطبقة اجتماعية متميزة في المجتمع السوداني المسلم . كما تتطلب الدراسة دراسة الموضوع على خلفية نشأة السلطنات السودانية الإسلامية القديمة ، والمتمثلة في هذا البحث في سلطنتي " الفونج " و " الفور " ولسلط الضوء على الزمان والمكان الذي أدت فيه الأدوار على اختلاف أشكالها وألوانها .

مصطلح بلاد السودان :

كان المؤرخون العرب في العصر الوسيط يعرفون الرقعة الجغرافية الواقعة جنوب مصر والممتدة وراء الصحراء من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً ، ببلاد السودان ، وكانت المنطقة تشمل سلطنة سنار ، دارفور ، وداي " تشاد حالياً " ، كانم ، برنو ، سكو، تمبكو، ومالي " .

السلطنات السودانية - خلفية تاريخية :

قامت سلطنتا الفونج والفور في منطقة تحيط بها الدول الإسلامية وساعد الجوار على وصول بواكير الدعوة الإسلامية ، والثقافة العربية عبر التجار والمهاجرين العرب

* أستاذ مساعد بمركز دراسات السلام - جامعة جوبا .

والمسلمين منذ القرن السابع الهجري ولهذا قامت السلطنات السودانية على أرضية وخلفية إسلامية وكلها كانت ضعيفة بعض الشيء في بداية أمرها لأن العناصر الناقلة للدين والثقافة من الدعاة الأوائل كانوا هم أنفسهم غير متعمقين في أمور الدين وكان أغلبهم من البدو ولهذا كانت عقيدة السكان المحليين الذين أخذوا منهم ، وثقافتهم اللغوية والدينية اسميه ومحدودة^٢ . قامت السلطنتان : الأولى " الفونج " في السودان النيلي الأوسط والثانية " الفور " في الغرب .

سلطنة الفونج (١٥٠٤ - ١٨٢١) م :

قامت هذه السلطنة الإسلامية على أنقاض دولة النوبة المسيحية ، ونشأت على تحالف بين الفونج بقيادة عمارة دتقس والعبدلاب بزعامة عبد الله جماع كما قامت أيضاً على أسس ودعائم إسلامية^٣ ، وفي اعتقادي أن قيام هذه السلطنة الإسلامية في قلب إفريقيا هو آية من آيات الله البينات حيث قدر سبحانه وتعالى أن تكون عوضاً للمسلمين عن الأندلس التي ضاعت منهم وعادت تحت اسم " أسبانيا " إلى منطقة الدول الأوربية غير المسلمة بعد أن دامت بها الحضارة العربية الإسلامية لثمانية قرون^٤ .

سلطنة الفور (١٦٥٠ - ١٨٧٤) م / (١٨٩٨ - ١٩١٦) م :

ورثت سلطنة الفور الإسلامية إمبراطورية الداخو والتنجور التي كانت تشمل : دار فور ، وداي " تشاد حالياً " وقد عمرت ثلاثة قرون ، ومثل نظيرتها " الفونج " خضعت للتيارات الدينية وهجرة العلماء من مصر ، وشمال أفريقيا ، وغرب أفريقيا ومن أواسط السودان النيلي ، ومن كردفان . انتهت فترة الاستقلال الأولى للسلطنة في عام (١٨٧٤) م عندما تم سقوطها على يد الزبير باشا ودخلت تحت سيادة الحكم التركي المصري ، ثم استعادت استقلالها تحت السلطان علي دينار في الفترة (١٨٩٨ - ١٩١٦) م ثم ضمت ثانية إلى الحكم الثنائي الإنجليزي المصري (١٨٩٩ - ١٩٥٦) م^٥ . ظلت سلطنة الفونج مزدهرة حتى غزاها محمد علي باشا والي مصر واستولى عليها في ١٨٢١ م .

الحالة الدينية العامة بالسلطنات في القرن العاشر الهجري:

تورد الطبقات وصفاً ليوحنا السوري يصف فيه الحالة الدينية في سلطنة الفونج في بداية عهدها في منتصف القرن العاشر الهجري (١٤٠٥م) فهو يقول: "سكانها ليسوا مسيحين ولا يهود ولا مسلمين" ويزيد صاحب الطبقات القول إيضاحاً حيث يقرر "إعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة في القرن العاشر ولم تشتهر بتلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ويقال إن الرجل كان يطلق زوجته ويتزوجها غيره في نهاره من غير عدة حتى قدم محمود العركي من مصر وعلم الناس العدة" "٦" وهذه الضرورات كان التمهيد الرسمي بدعوة السلاطين والوزراء منذ بداية عهد عمارة أبوسكيكين والشيخ عجيب العلماء والفقهاء والدعاة والمرشدين إلى الحضور إلى السلطنة لتعليم أهلها أمور دينهم ولهذا أخذ العلماء في التدفق على السودان من مصر والحجاز وشمال أفريقيا. أما سلطنة دارفور فقد تأخرت نشأة السلطنة الإسلامية حتى القرن السابع عشر وقبل عرض الأدوار والوظائف التي قام بها المبشرون الإسلاميون الأوائل نعرض تعريفاً تسمية "الفقرا".

"الفقرا":

"الفقرا" بهذا الرسم الإملائي لفظة سودانية عامية دارجة والفصح منها "فقرا" بإثبات الألف المدودة وكلاهما تستخدمان للدلالة على الفقهاء والمتصوفة والزهاد وهي الفئة المحورية التي تعني بأمرها هذه الدراسة وتحاول حصر رموزها ووظائفها ومؤسساتها.

يستخدم كثير من المستشرقين بجامعة الغرب ومنهم على سبيل المثال: بروفيسر هولت - بريطاني - أستاذ التاريخ بجامعة لندن، عمل في السودان قبل الاستقلال حتى عام ١٩٥٤م وله مؤلفات عديدة ومتخصصة في تاريخ السودان والشرق الأوسط، وأوفاهي إيرلندي - وهو رئيس شعبة التاريخ بجامعة برفن بالنرويج، وهو أيضاً من المكثرين في الكتابة في تاريخ السودان، والمستخدمين للوثائق العربية السودانية،

باعتبارها أحد مصادر كتابة تاريخ السودان ومن أشهر كتبه " الدولة والمجتمع في دارفور " واسبولدق وزوجته ليدوين والزوج أمريكي وله شروحات كثيرة للوثائق العربية السودانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والزوجة هولندية وتشاركه الاهتمام بالدراسات السودانية ولها مؤلف عن المساليت بغرب السودان ، وكلهم من الكتاب المعروفين في الأوساط الأكاديمية الغربية والعربية ، وفي اطلاعي على مؤلفاتهم لاحظت أنهم يتعمدون الخلط بين المعنى اللغوي "الفقرا" بالمعنى الاصطلاحي الحركي فهم يستخدمون لفظة "فقرا" "fuqara" وليس "fuqaha" ، "فقهاء" التي تعادل في مفهومهم لفظة قديس "Abb.St." ، و "Saint" أو الفقيه "Jurist" من مركب كلمة الفقه "Fiqh" في لغتهم وهو لفظة "Jurisprudence" ، وأحسب أنهم أرادوا الإصاق صفة الفقر بمعنى العدم والعوز وقلة المال على أولئك النفر الصالح من الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف لا يسألون الناس إلحافاً ويعيشون على الكفاف والأموال تنهال عليهم من كل صوب وحدث مصداقاً لقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾^١ . لكل ولعل الوصف المنصف لأولئك العلماء هو ما عرفهم به د . عبد المجيد عابدين حيث قال: "بأن الفقير هو" ابن البلد المثقف الذي هو القدوة الحسنة للغير في التمسك بتعاليم وأحكام الدين ويستمد قوته من ثقة الجماعة فيه " ^٢ .

وفي الحقيقة فإن لفظة "الفقرا" قد استخدمت في الطبقات ولكن عن حسن نية ولكن صاحب الطبقات ميز بين "الفقيه" وأطلقه على حافظ القرآن ومقرئه بينما أطلق لفظة "الشيخ" على مدرس العلم فقط وكلاهما الفقيه والشيخ مستعملان في كتاب الطبقات للدلالة على رجال العلم والدين ، وهناك نوع ثالث من هذه الفئة وهم "الأولياء" ويسبق "الولي" اسم الفقيه أو الشيخ إذا ما كان من العلماء ويشير "بركهارت" إلى لقب "فقير" ويقول بأنه يطلق على من يستطيع القراءة والكتابة ^٣ .

الرعيل الأول من "الفقرا" :

جمع الرعيل الأول من "الفقرا" الذين وفدوا على السودان في عهد السلطنات الإسلامية القديمة بين العلم والتصوف في بادئ الأمر ثم غلب التصوف على العلم، فالعلم كان يبحث في أمور الظاهر بينما اقتص التصوف بعلم الباطن أو الكشف، ومن "الفقرا" من بدأ عالماً ثم انتهى إلى التصوف، فما هي وظيفة "الفقرا" عموماً؟^{١٠}.

التعليم والإرشاد :

أفاض د. حسن مكي في كتابه "مضامين الثقافة السنارية" في إبراز دور "غلام الله بن عابد" من اليمن وأحفاده في نشر الإسلام في السودان فقد وصل غلام الله إلى دنقلة في المنتصف الثاني من القرن الرابع عشر فعمر مساجدها، وعلم فيها علوم القرآن، وكان أول من درّس مختصر خليل بن اسحق، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني على مذهب الإمام مالك ثم واصل أحفاده وهم "رباط" و"الداهشمية" و"ركاب" والد فرع الركابية، ومنهم انحدرا الأبناء الأربعة، وهم إبراهيم، وهو أول من درّس مختصر خليل ببلاد الفونج وكان أكثر اخوته صلاحاً، ثم إسماعيل وكان أكثرهم ورعاً، ثم عبد الرحمن وكان أكثرهم عبادة، وفاطمة وهي والدة الشيخ صغيرون، وكانت تصرف من مالها الخاص على رعاية الطلاب وتعليمهم، وأوردت الطبقات أنها كانت تنفق قبل زواجها على أربعة وعشرين فقيراً، وقد أسس ابنها الشيخ صغيرون مركزاً دينياً وكانت تربطه بمض الصلات الطيبة بمركز إدريس ود الأرباب^{١١}. وصل أولاد جابر إلى دارفور حيث ورد اسمهم على وثيقة صادرة من السلطان محمد دورا (١٧١٠-١٧٢٠م) منحهم بموجبها حيازة أرض بدارفور وسمماها "جاها"^{١٢}.

قام الفقراء الأوائل بتعليم السودانيين القراءة والكتابة "محو الأمية" ولهذا درج السلاطين وكافة المواطنين على إرسال أبنائهم "للفقرا" للتعليم وعلى جانب هذا كانوا يدرسون علوم اللغة والمعاني والبيان والشعر والعروض^{١٣}.

ويقال أن الشيخ محمد العركي الذي دخل السودان في القرن العاشر شيد سبع عشرة مدرسة في المنطقة ما بين الخرطوم وأبليس، وهو أول من علم الناس العدة عن الطلاق، وقد أسس المدارس في أنحاء متفرقة على النيل الأبيض^{١٤}.

ولم يكن العلم سائراً على المذهب المالكي فقط بل كان للمذهب الشافعي بعض الرواج في السودان على يد محمد بن علي بن قرم الذي قدم إلى السودان في عهد الشيخ عجيب بأمر من السلطان دكين (٩٧٠-٩٨٥)م وكان شافعيًا وقام بالتدريس في أربحي وبربر^{١٥}. أدى المعلمون والمرشدون الأوائل مهامهم التربوية من داخل المؤسسات الدينية، كالحلوي والمساجد والمساييد والزوايا. فالخلة بالمفهوم الصوفي تعني الانقطاع للعبادة ولها تسميات مختلفة في أماكن أخرى من العالم الإسلامي فهي: "الدارة" في غرب إفريقيا و"الدقسي" في شرق القارة و"الزاوية" في كينيا و"الكتاب" بضم الكاف وفتح التاء في كثير من الدول العربية^{١٦}.

وفي السودان تعتبر الخلة مكاناً للدراسة قبل الصفة حتى يتلقى التلاميذ (الحيران) سور القرآن للحفظ مع تعلم القراءة والكتابة على ألواح الخشب والكتابة عليها بأقلام البوص وبالخبر، وقد كانت الخلة تلحق عادة بالمساجد وتكون من حجرات تؤدي أغراض مختلفة، فمنها الحجر الخاصة بالفقير، وحجرة حفظ ألواح الحيران، وبها حجرتين للدراسة، وفضلاً عن ذلك فهناك حجرة الضيافة وغار للعبادة الخاصة بالفقيه، وتوجد بخارج الخلة "البقعة" وهي مكان الدراسة الصباحية والمسائية^{١٧}. وقد أشار دكتور علي صالح كرار في رسالته للدكتوراه بجامعة "بيرجن" النرويجية إلى أن "الخلة أوقدت نارين - يقصد بالنار هنا الإضاءة بحرق خشب الوقود ليلاً - أولهما تسمى نار القرآن وثانيهما تسمى بنار العلم، فالخلة كانت مؤسسة تربوية وتعليمية وكان المنهج المقرر يشمل علوم القرآن كالتجويد والتوحيد والفقه وعلوم الحديث الشريف، ولم تتوافر بالخلة السودانية مناهج دراسية محددة بل كانت تؤلف بواسطة "الفقرا" وفي بعض الأحيان تستجلب الكتب من الأزهر الشريف بمصر"^{١٨}.

وطائفه "الفقرا" في ملطني الفوج والفرور

وإلى جانب الخلاوي المنتشرة كانت هناك المساجد وكانت رسالتها تعليمية أيضاً وتختلف عن المؤسسات الدينية الأخرى في كونها "يسوت الله" تؤدى فيها الصلوات الجامعة في أيام الجمعة والعيدين، وقد أوضح "أوفاهي" أن عطاء السلاطين للفقرا لم يقف عند الدعم المادي بل تمثل في بناء السلاطين للمساجد إلى درجة أن الفاشر يقصد بها الساحة الكبيرة أمام قصر السلطان كحاضرة للسلطنة كانت محاطة بالمساجد واشتهر مسجد الشيخ أبوزيد الذي بناه في "وداي" في القرن السابع عشر، كما أشتهر مسجد السلطان "دورا" الذي شيده في القرن الثامن عشر وعين له محمد صالح الكييابي الذي حضر من الحجاز في ذلك الوقت، ثم بني مسجداً آخر في موقع بين كاس ونيالا^{٢١}.

الدور الدعوي:

تحمل "الفقرا" عبء الدعوة وتحسدت في مهمتهم أصول الدعوة الأربعة، فكانوا هم الأصل الأول "الدعاة" تيمناً ومواصلة لدعوة الرسول ﷺ وهو الداعية الأول الذي كلفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾^{٢٢}، وكان "الإسلام" هو الأصل الثاني وهو موضوع الدعوة وهذا تكليف عام لجميع المسلمين حسبما ورد في قوله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾^{٢٣}، وقد حث الرسول ﷺ أمته على الدعوة وقال: "بلغوا عني ولو آية والعهد هنا ليس إقاصاً لقدرة الآية إنما هو إشارة إلى جهد المقل حيث يحوي القرآن الكريم (٦٠٦٦٦) آية، وتمثل ثالث أصول الدعوة في "أمة الإسلام السودانية" فهم المدعوون إلى دين الله وعلى سنة الرسول ﷺ وكانت مهمة "الفقرا" الأوائل جد عسيرة لأن الناس كانوا قريبي عهد من المسيحية وكانوا في جهل شديد. أما الأصل الرابع فقد كان في "أساليب ومناهج التبليغ"، فقد كان دافعهم إلى الدعوة الامثال لقوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾^{٢٤}، وكانت "الفقرا" وسائلهم في

التبليغ بالقول في الخطب على المنابر وفي الدروس والمناقشات وفي الكتابة أيضاً ، وقد كانوا قدوة حسنة نالوا بذا فمهم الله وتركهم ملذات الدنيا والزهد فيها حب وإعجاب الناس إلى درجة أن الناس حسبوا أن الفقير "مهدي" و "معصوم" ولازمت هذه الحجة الفقير في حياته وفي مماته فكثيراً ما تبنى على قبورهم القباب والأضرحة وتزود بالماء والخدمات فيزورها الناس تبركاً بها ، وكان من الناس من يحفظ فيها متاعه تحصيئاً له من السرقة والضياع"^{٢٣} . لم يتخذ "الفقرا" من التدريس صنعة للكسب ومصدر الرزق بل كانوا يفتقون على التلاميذ والدارسين مما يصلهم من هبات وعطايا من المریدين ومن السلاطين ومن عائد أعمالهم الخاصة"^{٢٤} .

إقامة الصلاة :

حفز السلاطين "الفقرا" على الاستقرار بجانبهم في المدن وفي الأرياف وبنوا لهم المساجد ، وقام "الفقرا" بإقامة الصلوات وإمامتها إلى جانب التدريس والدعوة وكان الفقير هو المقدم للإمامة في الصلاة الجماعية لأنه أحفظ المصلين للقرآن وأكثرهم ورعاً وأسماهم منزلة في الدولة وفي المجتمع .

الدعاء والأذكار :

كان "الفقرا" يستجيبون لطلبات السلاطين بالدعاء لهم بالنصر في الحرب وبالهناء والتقدم في وقت السلم ، ولهذا كانوا يقيمون الأذكار وتلاوة الأوراد تضرعاً لله لإجابة الدعاء"^{٢٥} .

مكانة "الفقرا" في البلاط السلطاني :

توضح رواية التونسي "في" تشجيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان " وفي وصفه لزيارته لدار فور أن البرتوكول المتبع في جلوس الحاضرين لمجلس الحكم أن السلطان يتصدر المجلس وعلى جانبيه الوزراء ويليهم العلماء و"الفقرا" ، ومن هنا يتضح المكانة الرفيعة التي حظي بها "الفقرا" في البلاط ، وورد أن السلطان محمد تيراب كان يخصصهم بالطعام الجيد ويؤثرهم على الوزراء"^{٢٦} .

تقديم المشورة للسلطين :

ترددت الإشارات في الطبقات إلى لجوء سلطين الفونج إلى استشارة "الفقرا" في الأمور والقضايا العامة ومن أمثلة ذلك استشارة السلطان آسة بن ناصر للشيخ مختار بن محمد عندما عزم على حرب الفور فإشار إليه الشيخ أن لا يفعل في ذلك الوقت ، ومثال آخر يفيد بأن السلطان بادي بن رباط عندما احتاج إلى مشورة الشيخ دفع الله محمد ذهب إليه في أبي حراز بموكب سلطاني تبعه الطبول والطابور ، وهذا يوضح مدى ما كان يكنه السلطين من توقير لهؤلاء "الفقرا" ^{٢٧}.

الشفاعة لدى السلطين والطلم بين الناس :

كان "الفقرا" يتوسطون بين الراعي والرعية بما يعرف بالشفاعة بين الناس الذين تصدر عقوبات عليهم ، وكانت شفاعتهم لا ترد إلا أن كثيرا منهم كان لا يذهب إلى مجالس السلطين ومنهم الشيخ خوجلي عبد الرحمن صاحب القبة بالخرطوم بحري ، ولهذا يقال أن السلطين كانوا يهابونه ويكونون في حضرته كالتلاميذ ، وقد تمثل الشيخ في مسلكه ذلك حكمة الشيخ فرج ود تكوك الذي صاغها شعرا بقوله :

| | |
|----------------------------|---|
| يا واقفا عند أبواب السلطين | أرفق بنفسك من هم وتحزين |
| تأتى بنفسك في ذل ومسكنة | وكسر نفس وتخفيض وتهوين |
| من يطلب الخلق في جلب مصلحة | أودفع ضرر فهذا في المجانين |
| إن كنت تطلب عزلا لافناء له | فلا تقف عند أبواب السلطين ^{٢٨} |

الأمن الاجتماعي :

كان الناس كثيرا ما يلجأون لحمى الفقيه لاسترجاع المسروقات وكان "الفقرا" يستعينون في إعادتها لأصحابها بالدعاء والأذكار وفي ذات الوقت كان مقر الفقير حرما آمنا لمن يلجأ إليه من جور الحاكم أو المجتمع ^{٢٩}.

الضيافة :

أغدق سلاطين الفونج والفور العطايا السخية عينا وتقدا على "الفقرا" فمنحوهم الأراضي وأعفوهم من الضرائب وأباحوا لهم استثمار طاقات مريديهم في العمل معهم ، ويضرب المثل في كرم الضيافة بمعاملة الشيخ حسن ود حسونة لضيوفه ، وقد كان يطعم الناس في نهاية رمضان ، وكان الطعام يقدم بكميات كبيرة تحملها مائتان وأربعمون من الفتيات مع أمهاتهن وهن في ملابس مرصعة بالذهب ، وهذا دلالة على ثراء الخلوة وشيخها^{٣٠} .

لم يكن "الفقرا" يستجدون العطاء من السلاطين بل كان بعضهم ينظر إلى العطاء السلطاني كشيء غير محبب ومن ذلك الاتجاه رفض الشيخ سعيد الفوني الأكل مع أخيه مالكي بدارفور بزعم أن الأخ يعيش في بذخ البلاط السلطاني^{٣١} ، وقد سار على هذا النهج المتحفظ الكثيرون من الأتقياء ومنهم الإمام المهدي حينما شك في طعام معلمه وظن أن مصدره الطاغوت ويقصد بذلك الحكومة الفاسدة في عصره .

التداوي بالقرآن :

كان "الفقرا" يوظفون خلاويهم كمراكز صحية وعلاجية يداوى فيها المرضى بالعلل النفسية بالقرآن ومن هذا أن الشيخ إدريس ود الأرباب تمكن من معالجة والدة سلطان الفونج عمارة أبوسكيكن (١٥٦٨م) ، وتم له ذلك بعد أن أخفق في علاجها الشيخ بان النقا الضرير وبذلك نال الشيخ منزلة عالية في أذهان الناس وعدوه وليا من الصالحين^{٣٢} .

القضاء :

جمع كثير من "الفقرا" بين وظيفتي القضاء والتدريس وقد سار على هذا النهج الشيخ عبد الله العركي الذي ولاه الشيخ عجيب القضاء ولم يترك التدريس . وقد برع في المجال القضائي على ود عشيب والشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب^{٣٣} . ومن تولى

وظائفهم "الفقرا" في سلطنة العيون والعمور

القضاء بدارفور محمد الصفوني المصري الذي استوطن بربر، وعلم بها الرسالة والعقائد والنحو وساثر العلوم، وعندما ولي القضاء حرم الرشوة^{٣٤}. وكمثال للفقهاء في التقاضي يضرب المثل بالشيخ عبدالرحمن النويري رفيق عبدالله القرني وقد تولى القضاء بأمر السلطان دكين، رفع إليه رجل أن امراته تبرعت بثلاث مال زوجها قاصدة بذلك الإضرار بالزوج، فحكم الشيخ برد المال مستنداً على حكم الإمام مالك، فنازعه "الفقرا" في الرأي وقالوا له حكمت بالمقابل وكاتبوا في ذلك الأجهوري بمصر فأجابهم بصحة الحكم مراعاة للعرف والمصلحة^{٣٥}. وفي دارفور ولي حماد موسى وراق القضاء في عهد السلطان تيراب في حوالي (١٧٧٠) م^{٣٦}.

الإفتاء:

عمل "الفقرا" في هذا المجال حيث علموا أن واجب العالم تعليم الناس ما يحتاجون إلى معرفته من أمور دينهم وأن واجب الجاهل أن سؤال العالم في تلك الأمور، وسأل الجاهل وإجابة العالم تكون نظام الإفتاء^{٣٧}.

الفرائض:

هذا اصطلاح فقهي يدل على حرص السودانين على معرفة حكم الدين في قسمة الموارث والتركات من أراضي زراعية وغيرها وقد نبغ في هذا المجال إبراهيم الفرضي الذي ألف حاشية شهيرة بعنوان "الفرضية"^{٣٨}.

ومن الفتاوى الشهيرة في تلك الحقبة الإفتاء بحرمة التباك، وقال بها الشيخ إدريس ود الأرباب في أول القرن الحادي عشر، بينما حلله الشريف عبدالوهاب وتحاكما أمام الشيخ عجيب، فأصر الشيخ إدريس على فتواه، مستنداً على تحريم السلطان مصطفى الثاني الخليفة العثماني الذي حرمه، وقال بأن مذهب الإمام مالك يحتم طاعة ولي الأمر، ثم استفتى الشيخ الأجهوري بمصر، وعندما علم الأجهوري أن الوثيقة حديثاً ينسب إلى الرسول ﷺ في هذا الخصوص قذف بالخطاب فدعا عليه تلميذ الشيخ

إدريس الذي حمل إليه الخطاب فأصيب بعد أيام بالعمى إثر ضربة تلقاها من مغربي في خلاف آخر^{٣٩}.

العمل المهني والحرف:

لم تحل وظيفة الدعوة والإرشاد وغيرها من المهام دون قيام "الفقرا" ببعض الأعمال الدينية لكسب القوت، فكان منهم من امتحن التجارة في السودان ومن تاجر مع دول الجوار، والغير كان يستمر في الزراعة والرعي وغيره من أوجه النشاط الاقتصادي المشروعة^{٤٠}.

التوثيق:

مع انتشار التعليم في ربوع سلطنة الفونج والفور، أخضعت جميع المعاملات العامة والخاصة للتدوين وفق الشروط الشرعية في صحة العقود وعروض التجارة وغيرها من المعاملات الحياتية بين الناس، وكان "الفقرا" هم الذين يقومون بهذا التوثيق، وقد مارسوه حيثما كانوا يعملون كمعلمين أو قضاة أو في دائرة الأحوال الشخصية أو ككتبه يعملون في توثيق المعاملات المختلفة^{٤١}.

وبفضل التوثيق ورثت الأجيال التالية للفونج والفور كما هاتلا وثريا من المعرفة المدونة والتي عمت كل مناحي الحياة الدينية والاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية وغير ذلك مما جعلها مصادر أولية وأساسية لدراسة تاريخ السودان في تلك الفترة. ومن المعلوم أن تاريخ تلك الفترة التاريخية الهامة الممتدة من منتصف القرن العاشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر تستقي معلوماته من مصدرين أساسيين وهما طبقات وديف الله وتؤرخ لفترة الفونج وتورد تراجم لعدد مائتين وسبعين فقيها من تلك الفترة، وثاني المصادر هو تاريخ الشونة (الشونة مخزن الغلال في العهد التركي)، وقد كسبه محمد الحاج أبو على ونهلت منه الدراسات المعاصرة.

أدبيات المرحلة :

جاء العلماء المسلمون إلى السودان من مصر والحجاز والمغرب ، وكانوا خليطاً من رجال العلم والفقهاء والتصوف ، وكان الطابع العلمي يغلب على من أتوا من مصر ، كما كان الطابع الصوفي يغلب على من أتوا من الحجاز ، أما من جاءوا من المغرب فقد كانوا مزيجاً من هؤلاء وهؤلاء^{٤٣} .

اهتم الدعوة الأوائل بتحفيظ القرآن وتدريس علوم الفقه والتوحيد على مذهب الإمام مالك والشافعي كما أشرنا ، وكان أول من نشر العلم محمود البركي ، وإبراهيم البولاد ، وأولاد جابر ، وهؤلاء درسوا في الأزهر ، ثم قاموا بتدريس المختصر والرسالة في السودان^{٤٤} . وكان من بين ما درسوا من العلم ، علم الكلام والعقائد ودرس من السنوسية لأبي عبد الله محمد السنوسي التلمساني (١٤٨٠هـ / ١٤٨٠م) ، ويتكون من ثلاثة مقالات - كبرى وهي (عقيدة التوحيد) ، وسطى وهي (المرشد) ، وصغرى وهي (أم البراهين) وقد كتب لها التلمساني شروحا ، وقام غيره بكتابة شروح أخرى^{٤٥} .

أما علوم القرآن فكانت تشمل: السند والتجويد والتلاوة ورسم القرآن ، وقد ازدهرت في عهد الفونج على يد محمد بن عيسى تلميذ التلمساني المغربي ، والمصري محمد القناوي ، كما اشتهر بتدريسها عبد الله الأغيش ، وتلميذ عيسى ولد كفو وكان يدرس من الجزرية وهي منظومة في التجويد ، أما مالك بن عبد الرحمن ولد حمد تو ، فقد ألف ثلاث حواشي عن الميراث: كبرى ووسطى وصغرى ، وهن في غاية الإفادة^{٤٥} .

التصوف :

فضّل كثير من السودانيين الصوفية على المنهج العلمي إلى درجة أخضعت السودان للبعث الصوفي ، ومن الطرق الصوفية التي دخلت وراجت :

القادرية : كانت في صدارة الطرق الصوفية التي وصلت السودان وأدخلها الشيخ تاج الدين البهاري الذي جاء من الحجاز (١٩٨٥هـ / ١٥٧٧م) ، وسلك فيها خليفته

محمد الهميم بن عبد الصادق ، وياقنا الضرير ، ومن شيوخها الشيخ إدريس ود الأرباب والشيخ حسن ود حسونة .

الشاذلية: دخلت السودان في القرن الحادي عشر عن طريقة القادرية ، واشتهرت بها أسرة المجاذيب في الدامر واشتهرت تبعاً لذلك بالمجذوبية ، ومن أشهر مشايخها الشيخ خوجلي الذي جمع بينها وبين القادرية .

السماوية: وهي أحد فروع الطريقة الخلوئية ، وقد أسسها في الحجاز الشيخ محمد السمان ، ودخلت سنار على يد الشيخ أحمد الطيب ود البشير ، وسلكها الشيخ محمد شرف نور الدائم مدرس المهدي .

الفتمية: أسسها السيد محمد عثمان الميرغني الختم (الكبير) (١٧٨٧ - ١٨٥١م) ، وقد ولد بالطائف وكان قد تلمذ على الشيخ أحمد بن إدريس المغربي ، ومن فروعها الختمية والإسماعيلية ، وهي منتشرة في كردفان ، وأسسها هناك الشيخ إسماعيل السولي بن عبد الله الكردفاني .

التيمانية: دخلت السودان في القرن التاسع عشر وهي فرع من الطريقة الخلوئية ، وهي منتشرة في دارفور .

الأحمدية والإدريسية: ومن فروعها الرشيدية ، الذين ينسبون إلى إبراهيم الرشيد ، وهي منتشرة في أواسط البلاد وفي دقلة وكثير من الدول الإسلامية^{٤٦} .

الإجازة :

الإجازة هي شهادة يمنحها الشيخ لحواره ، أو من تلمذ على يديه ، ويرجع في العلوم الدينية ، ومن أمثالها إجازة الشيخ عبد الله العركي للشيخ محمود ود دفع الله وكان لغتها : "لما رأيت أخي الطالب الراغب محمود ود دفع الله الشهير بأبو إدريس أهل هذه النعمة العظيمة الشريفة ، أجزته لقراءة الأسماء والحزب السيفي (أحد أوراد الطريقة الجيلانية) وغير ذلك من الدعوات المذكورة والأذكار الماثورة ، وأجزت له لباس الخرقه ،

وطائفة "الفترا" في مطنتي الفونج والنور

واستخلفته كما أجازني شيخني حبيب الله الشيخ البصري، والذي أخذ من شيخه ومرشده تاج الدين البهاري^{٤٧}.

والطبقات مليئة بكرامات أولياء الله من المتصوفة في السودان ومن أمثلتها إحياء الموتى على يد حسن ود حسونة فقد أعاد إلى الحياة بنت الريس في الخشاب بعد أن توفيت كما أحيوا ولدا لبكر بعد أن غرق لمدة ثلاثة أيام، ونجد أن هذه الروايات أشبه بالأساطير وهي مستحيلة على قدرة الإنسان ولكنها ممكنة وهينة على قدرة الله عز وجل، وورد مثل هذه القصص من المآخذ التي أخذت على كتاب الطبقات.

ونختم هذا البحث باسترجاع تقييم منصف للدكتور حسن مكّي لإنتاج الخلاوي حيث يقول: "بأنها (الخلاوي) خرجت صفة إسلامية متعلمة امتازت بالتماسك القومي وبالقدرة على مواجهة التحديات وامتصاص الأزمات"^{٤٨}.

نفعا الله بما علمنا، وعلمنا ما لم نعلم، وهو الهادي إلى سواء السبيل والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ﷺ.

الهوامش :

- ¹ عبدالعزيز أمين عبدالمجيد : التربية في السودان - من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها . الجزء الأول - المطبعة الأميرية - القاهرة: ١٩٤٩م ، ص ١ .
- ² كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان ، تأليف محمد النور ود ضيف الله ، تحقيق وتعليق د. يوسف فضل حسن ، جامعة الخرطوم - ط ٢ ١٩٧٤م ، ص ٢ .
- ³ د. حسن مكى ، الثقافة السنارية - المغزى والمضمون ، إصدار رقم (١٥) جامعة إفريقيا العالمية - مركز البحوث والترجمة ، بدون تاريخ ، ص ٨ .
- ⁴ أحمد شلبي ، موسوعة الحضارة والتاريخ الإسلامي ، القاهرة ١٩٨٤م ، ص ٥٠ .
- ⁵ R.S.O' Fahey , state & society in Dâr fûr, London 1980 , P. 13.
- ⁶ الطبقات ، المصدر السابق ، ص ٤ .
- ⁷ الطلاق : ٣ .
- ⁸ حسن مكى ، المصدر السابق ، ص ٥٣ .
- ⁹ عبدالعزيز أمين عبدالمجيد ، التربية ، المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
- ¹⁰ المصدر نفسه ، ص ٢٣٢ .
- ¹¹ حسن مكى ، المصدر السابق ، ص ٥٠ .
- ¹² نعم شقير ، جغرافية وتاريخ السودان ، بيروت ١٩٠٣م ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .
- ¹³ الطبقات ، المصدر السابق ، ص ٦ .
- ¹⁴ د. عبدالعزيز أمين عبدالمجيد ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .
- ¹⁵ الطبقات ، المصدر السابق ، ص ٥ .
- ¹⁶ موسى آدم ، خلاوي دارفور ، في مجلة دراسات إفريقية ، عدد (١٨) ، يناير ١٩٩٨م .
- ¹⁷ Dr. Ali salih Karar , the Function and Economy of the Institutions linked to the African studies , published by the center of Africa studies , IUA Issue no 13 , June 1995 , pp. 43 .
- ¹⁸ المصدر السابق ، ص ٤٥ .
- ¹⁹ R.S.O' Fahey , state & society in Dar fur , London , 1980 , p. 118.
- ²⁰ الأحزاب : ٤٥ - ٤٦ .
- ²¹ يوسف : ١٠٨ .
- ²² فصلت : ٣٣ .

- "٢٣" د. زيدان عبدالكريم ، أصول الدعوة ، دار الوفاء ، ط ٣ ١٩٨٧ م ، ص ٥-٤٧٠-٤٨٢-٤٩٤ .
- "٢٤" الطبقات ، المصدر السابق ، ص ١٢ .
- "٢٥" R.S.O' Fahey , op.eit , p. 111.
- "٢٦" د. عبدالعزيز أمين عبدالجيد ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ .
- "٢٧" المصدر نفسه ، ص ١٩٧ .
- "٢٨" المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .
- "٢٩" R.S.O' Fahey , op.eit , p. 116.
- "٣٠" الطبقات ، المصدر السابق ، ص ١٢ .
- "٣١" R.S.O' Fahey , op.eit , p. 119.
- "٣٢" د. حسن مكّي ، المصدر السابق ، ص ٦٢ .
- "٣٣" الطبقات ، المصدر السابق ، ص ١٠١ .
- "٣٤" المصدر السابق نفسه ، ص ٩ .
- "٣٥" المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٥ .
- "٣٦" R.S.O' Fahey , op.eit , p. 118.
- "٣٧" د. عبدالكريم زيدان ، المصدر السابق ، ص ٣٠٨ .
- "٣٨" المصدر السابق نفسه ، ص ٧ .
- "٣٩" الطبقات ، المصدر السابق ، ص ١٤ .
- "٤٠" د. عبدالعزيز أمين عبدالجيد ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ .
- "٤١" د. حسن مكّي ، المصدر السابق ، ص ٥٣ - ٥٩ .
- "٤٢" الطبقات ، المصدر السابق ، ص ٦ .
- "٤٣" المصدر نفسه ، ص ٦ .
- "٤٤" المصدر نفسه ، ص ٧ .
- "٤٥" المصدر السابق نفسه ، ص ٧ .
- "٤٦" الطبقات ، ص ٩ ، د. عبدالعزيز أمين عبدالجيد ، ص ٦٥ .
- "٤٧" د. عبدالعزيز أمين عبدالجيد ، المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .
- "٤٨" د. حسن مكّي ، المصدر السابق ، ص ٦٢ .